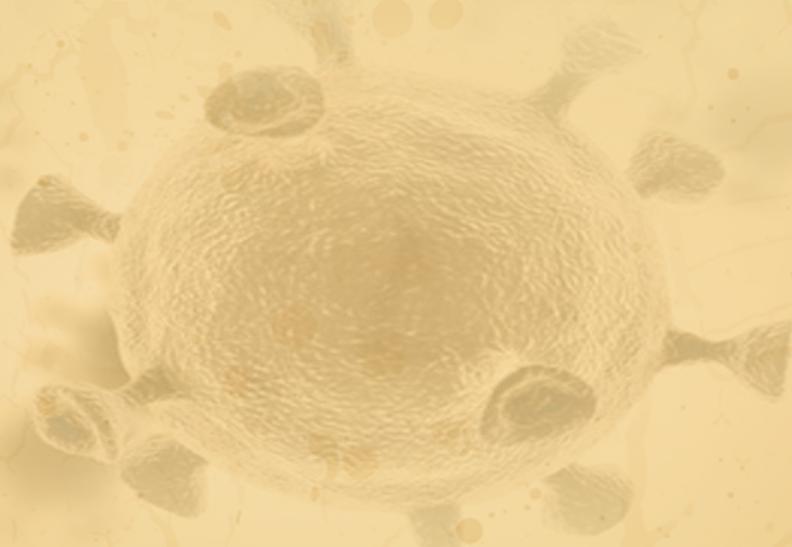


مناظرة مع ابن خلدون في تحبيري



الدكتور
محمد دراوي

د.امحمد دراوي ،دكتوراه في التاريخ ، جامعة خميس مليانة، الجزائر

خاطرة

مع ابن خلدون.... في حجري

جاء وباء "كورونا" ومعه حبست الأنفاس وتقطعت السبل بالناس ،فهو وباء شديد الانتشار بالغ الآثار ظهر في بلاد الصين ثم ما لبث أن تمدد في جل الأقطار والأمصار عبر البحار والقفار مخلفا الهلاك والدمار،وقد اعجز المخابر وأعيى الأطباء في كنهه ومنتهاه ، واخلط أوراق السياسة والحكام، وخشي غاشيته أرباب المصانع ورجال المال و الأعمال ،وتاهت من سطوته العامة والدهماء ،فادلهمت عليهم خطوبه وسبل الوقاية منه ، فذهبوا في تفسيره كل راي و مذهب ، وأفضى بهم الحال إلى تطبيق الحجر والانزواء،ونظافة الأبدان والأجواء ،فاجتهدت الحكومات والهيئات في تطبيقها وسعت في تجسيدها لوقف انتشاره والتقليل من آثاره و أخطاره .

لملمت حاجاتي من مقر عملي كغيري من الزملاء وغادرت المقر، وأغلقت مكثبي وعزمت أمري، فلزمت حجري ب"البليدة" من ارض الجزائر، وفيها للوباء بؤر ، وليس بي عهد سابق بالحجر ،فاضطرب حالي واختل ميزان حياتي ،ولم أجد لي من مواساة أكثر من مقارعة الكتب ومطالعة أعمال الفلاسفة والتاريخ وأهل الأدب . فلعمري انه خير الزاد وأفضل الجلساء، انهل من بساتين المعرفة صنوفا من الحكمة وفصل الخطاب.واني عزمت ان ابتداء بأمهات الكتب في الفكر والتاريخ وهي مادتي وسبيل عيشي .فوقع اختياري على كتاب "مقدمة ابن خلدون " فهو كتاب لا غنى عنه لمؤرخ صنيدي ولا لفيلسوف نحير،وقد جمع مادته من وقائع التاريخ وحكمة الفلسفة ،وقد كنت مررت عليه مرور الكرام في ما مضى من العمر ،فعزمت على استيفاءه والتبحر في فصوله ومباحثه ،فصُلت وجُلت بين دَفَّاته وثناياه ،متبحرا بين موضوعاته وقضاياها ،ملتمسا منه علاجا لحال الأمة في آخر الزمان .

والكتاب حقا فريد في موضوعه قوي في تحليله، ولا أخال أن أحدا سبقه إلى مادته. لا غنى عنه للمتأخرين من أهل النظر لمعرفة أحوال الأمم والشعوب، في تقلباتها بين القوة والضعف والرخاء والشدة والسيادة والخسف ،ولتتبع أحوال العمران البشري والتحول

الحضاري الذي هو قانون الله في البشر وسنته الأزلية في خلقه. ألم يصفه صاحبه بقوله: "واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة، غزير الفائدة...وكانه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة".

أخذتني نشوة القراءة وشهوة الاستمتاع بمضامين الكتاب ، وتأمل حكمه العجيبة كل مأخذ ، فاتصل ليلى بنهاري ، وواقعي بخيالي حتى رأيتني ذات ليلة وقد استدعيت صاحبه في منامي ، وكان ذاك مبتغاي ومرادي ، فجلست إليه أحدثه ، وكالتلميذ اللهفان أسأله ، أتدبر في حكمه واستأنس بنصائحه فلم يزل بي هذا الحال حتى أفقت وكان بيني وبينه ما كان من عذب الكلام وفصل الخطاب في مسائل السياسة والاقتصاد والأخلاق ومقتضيات العمران البشري ، واني ناقل لكم ما جرى والله الحكم والمنة .

أتاني بهي الطلعة وقد بدت عليه مظاهر الأبهة وملاحم الوقار ، كيف لا وهو علم زمانه ووحيد عصره في صنوف المعرفة ، صاحب التأليف والتصانيف العجيبة في علوم الفلك والحساب والتاريخ وعلم الاجتماع ، وهو قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية بلا منازع ، الوزير المحنك في بلاطات المغرب والأندلس ، تقلب في دهاليزها ما شاء ، واستأنس بسديد رأيه جهابذة بني حفص وبني زيان وبني مرين ، وانتدبه أبي عنان وحكام الأندلس لحل مشاكلهم والفصل في اتفقاتهم وخصوماتهم.

بعد التحية والسلام بادرنى هو بالسؤال :ماذا دهاك يا فتى وقد دعوتني من رقادي وقد خلت القرون من بعدي ؟

أخبرته بالقصة التي رويتها لكم فقلت: يا ابازيد : إني كنت في حَجري بسبب الوباء الذي ألمَّ بالبلاد والعباد ، وقد ضاقت بي السبل وتاهت بي في كل واد ، فعكفت على ما كتبت في "مقدمتك" أيما عكاف ، فتاهت نفسي بين دقاتها حتى غادرت عالمها الحسي واتصل حاضري بماضي ، فكان ما ترى من حصول المراد بمجالستك ، والحديث إلى حضرتك والاستئناس بأرائك وحكمك ، ابلغها للناس لعلمهم منها يعتبرون وبها يهتدون .

قال: لكنني من زمان غير زمانكم ، ولكل عصر شأنه وتقلباته لا يفقهها إلا أهله .

قلت : لكن يا شيخنا لا يستقيم حال الحاضر إلا بالماضي ، ولا نستشرف ما هو آت إلا بالقياس للحاضر ، ألسنت القائل : "... ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم الفائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا " ، وقد أصبت مرادك من هذا الفن ، إذ لا يزال الناس ينهلون من معين فكرك وعظيم فوائده ، وما أحوج الناس في أيامنا إلى رجل يفري فريك ، يجمع بين حكمة الفلسفة والتاريخ وتقلبات السياسة والحضارة فيستخلص لنا منها ما يرشد الناس إلى تقفي سبل الرشاد والخلاص .

قال:أبلغت المقدمة كل هذا المبلغ ؟

قلت بلى .

قال: الحمد لله الذي استجاب دعائي وبلغني مرادي و غايي مما تحريت وكتبت ، فالمقدمة عصارة جهد و خلاصة تجربة في الحياة ، فإني " بعد أن استوفيت علاجه ، وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجيه وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهجه وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه ... " وقد رحلت عن عالم الناس ولم أتوقع أن يبلغ ما بلغ . فاخبرني هداك الله عما حل بالناس بعد عصري ؟

قلت : اعلم أيها الشيخ الجليل أنا قد نكصنا على أعقابنا من بعدك وأصابنا الوهن وضعفت العرى واشتدت الخطوب ، فسقطت بلاد المسلمين تباعا في أيدي النصارى ، وكانت أولى البلاد سقوطا بلاد الأندلس باستيلائهم على آخر ممالكها على عهد بني الأحمر والتي استوزرت فيها ، فخرجت تلك الربوع من حوزة المسلمين إلى الأبد ، وخرج منها أهلها من المسلمين مذلون مهانون يتعقبهم النصارى في شعب الجبال وعرض البحار تقتيلا وتنكيلا ، ولم يشف ذلك غليلهم فاتبعوهم إلى ارض المغرب ، فاستولى الإسبان والبرتغال على سواحلنا على امتداد البحر ، وأثخنوا في المغرب وأهله تشفيا وانتقاما ، فكانوا على ذلك حتى قدم الأتراك من بني عثمان وقد صار إليهم أمر المسلمين ، فبسطوا سلطانهم على عالم الإسلام وصيروه إلى قيادتهم بالقوة أو بالنجدة ، فكان لهم ما كان من فضل الحماية والمنعة من تسلط الأوربيين المتربصين حيننا من الدهر ، ولم يزيدوا على ذلك فقد أذنت شمس الأمة إلى الزوال .

والحق ان ذلك الجيل -الذي سمي عصره بعصر- ما بعد الموحدين-قد فقد دفعته
الإيمانية التي حركت أسلافه وخلد إلى الدعة والترف لياليه وأيامه ، فاستسلم للخمول حتى لفه
الدهر بردائه ، ولم يستفق إلا وقد فقد زمام أموره وصار في قبضة أعداءه ، فاستحوذ
الاستعمار الغربي على دياره واحكم قبضته على جل أمصاره وأقطاره.

وقد كان الاستعمار شرا مستطيرا ، استحكم بالأوطان وانتهك الأعراض وسلب الثروات
والأموال ، وصير الأعيان اقيال ، فعطل الشرائع وأغلق المحاكم ، واحكم فينا شرائعه ، وسامنا
الخسف بسياسته ، فعم الجهل وغاب العدل واستوطن الفساد والاستبداد ، مستعينا ببطانة
منا لا يالوننا خبالا .

تهند الشيخ بحسرة ، ثم قال :اعلم أن الأيام دول ،ولسياسة الملك وعمران البشر سنن ، من
فقه كنهها نجا وسلم ومن نكب عنها ضل و هلك .واني اجتهدت قدرتي في استنباط تلك القوانين
وإسقاطها على وقائع التاريخ وتجارب الأمم والممالك .

قلت : بلى يا أبا زيد قد فعلت ووفيت ، لكن لات حين مناص .فقد "بلغ العالم الإسلامي من
التضعع أعظم مبلغ ومن التدني والانحطاط أعمق دركة ، فاربد جوه وطبقت الظلمة كل
صقع من أصقاعه " .

وكنا على ذلك حتى لاح شعاع الفجر في الأفق واستفاقت الأمة بعد طول سبات ، ونهضت
النفوس والهمم بعد ممات ، فطفق أهل الإصلاح والتحرير شرقا وغربا في البحث عن مكامن
الخلل وسبل الخلاص من العلل ، فقال قائلهم عن أدواء المستعصية: "وجدت أثقل أدواءه
داء انقسام أهله وتشتت آراءهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف" .

ولإن تحررت الأوطان فإنها لم تتحرر الأبدان ، ولان حصلنا الاستقلال فإنه لم ينته الاستغلال
، ربطنا الغرب بحبال التبعية إليه والانقياد لأوامره ونواهيته ، فصار حالنا حال المغلوب " المولع
أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده" . واصابنا الوهن "لما
حصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة
عليهم" ، وعلى حد قول القائل "تبا لأمة لا تأكل مما لا تنتج ولا تلبس مما لا تنسج" .

ولم انه الكلام مع الشيخ حتى بادرنى بالقول : "اعلم ايها السائل ان الظلم مؤذن بزوال النعم
وخراب عمران الأمم ، وان نظام العالم سار في كل الأحوال والعاقبة للمتقين .

ثم أردف قائلاً : اخبرني كيف حصل لكم الوباء وبلادكم واسعة وهوأؤكم نظيف؟ قلت: يا شيخنا لقد تبدلت الأحوال واتسع العمران وعجت الأرض بالساكنة و تقاربت الأمم والدول، فصارت أشبه بالقرية المتقاربة المعمور، المتصلة الأحوال بالخير والشرور ، فالمسير من الجزائر إلى بلاد الصين-البعيدة- لا يتجاوز عشر ساعات بالطيران في زماننا ، وهي بعيدة عنا بآلاف الأميال ، أما الأخبار فهي متصلة في كل حين بلا حبال .

ذهل الشيخ لكلامي ولم يكديستسيغ مقالتي لما وجد فيها من الغرابة ، وعهده بالعالم ما نقله الإدريسي وجاء في كتب الرحالة وما وجد من مشقة السفر بين الأمصار .

وختمنا الكلام عن الوباء المستجد ، وعن اسبابه ومدى انتشاره وحول ما كتب في موضوعه فقلت : والله يا ابازيد لا يكاد يخرج الأمر الحاضر عما وصفت في الماضي مع بعض التعقيد ، فالوباء الحاصل عندنا يقولون ان مصدره مدينة من بلاد الصين تسمى "ووهان" وواقعة ضمن إقليم يدعى "خوباي" وهي مدينة يسكنها أكثر من خمسة عشر مليوناً من البشر في عمارات عالية متجاورة وبها سوق كبيرة تباع فيه أصناف كثيرة من الدواجن والقطط والكلاب وحتى الخفافيش...وما لا تسيغه النفس وتنفر منه الأذواق السليمة ، ومنها خرج واستحكم في جل الأمصار وفتك بكبار السن وأصحاب العاهات والأمراض .

فربما كان ذلك ادعى لتلوث الهواء وتسممه وتكون بؤر الوباء وانتقالها للناس كالنار في الهشيم ، واني نظرت في قولك: "وسببه -أي الوباء- في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة..." وفي قولك "فإذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة ، وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة" ثم نظرت الى تقارير الأطباء في عصرنا فرايته قريبا منه في التمثيل ، فان أكثر البلاد تضررا من الوباء المدن الكبيرة والأحياء المزدحمة القليلة الهواء كميلانو من بلاد الطليان ونيويورك من ارض أمريكا ... ولا ندري منتهاه والله هو اللطيف الخبير.

البليدة في 11/06/2020